سماحة الإسلام في الغاية من الخلق
والنظرة الشرعية للحياة الدنيا

بحث مقدَّم إلى مؤتمر: سماحة الإسلام بين المفهوم الشرعي والتطرف الفكري
الذي تعقده كلية جبرة العلمية/ الخرطوم: 29/ جمادى الآخرة/ 1439هـ

بقلم
عبد الحق بن ملا حقي التركماني

مركز دراسات تفسير الإسلام

سماحة الإسلام في الغاية من الخلق والنظرة الشرعية للحياة الدنيا

CENTRE FOR STUDIES IN THE INTERPRETATION OF ISLAM

1 Kamloops Crescent, Leicester,LE2 1HX, United Kingdom

www.csiislam.org

سماحة الإسلام في الغاية من الخلق

والنظرة الشرعية للحياة الدنيا

بحث مقدَّم إلى مؤتمر: سماحة الإسلام بين المفهوم الشرعي والتطرف الفكري الذي تعقده كلية جبرة العلمية/ الخرطوم: 29/جمادى الآخرة/1439هـ

إعداد

عبد الحق بن ملا حقي التركماني

رئيس مركز دراسات تفسير الإسلام في بريطانيا

مركز دراسات تفسير الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

مدخـــل:

إن مسألة **الغاية من الخلق، ووظيفة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ونظرته إليها**؛ هي أهم المسائل التي تشغل بال كل عاقلٍ، وقد هدى الله تعالى عباده إلى الحقِّ فيها منذ أن خلق آدم عليه السلام، فأعلمه بغاية خلقه، وأرشده إلى سبيل رُشده، كما قال سبحانه: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ

﴿١٢٤﴾[طه]، فكان الإنسان الأول على هدًى من أمره، حتى طال الأمد، وتعاقبت الأجيال، فنُسي العلم، وتقاذفت بهم الأهواء، واجتالتهم الشياطين عن دينهم؛ حتى جهل كثير من الناس الغاية التي خلقوا من أجلها، واحتارت عقولهم في وظيفتهم في هذه الحياة، وأولى الفلاسفةُ والمفكرون هذه القضية بالغ عنايتهم، وأخرجوا للناس أجوبة مختلفة متضاربة، فمن قائل: إن الغاية بلوغ السعادة. ومن قائل: إنها نيل اللذَّة. ومن قائل: إنها تحقيق المنفعة. ومن قائل: إنها إقامة المدينة الفاضلة. وجاءت المدنية الغربية المعاصرة لتنهك الإنسان في ماديات الحياة وشهواتها، فكان جوابها الأبرز: لا أدري! فهَمُّ الإنسان الأكبر في المنفعة واللذة، ومن خلالها تتحدد الغاية، لهذا فلكل إنسان أن يجد جوابًا لهذا السؤال الأكبر بما يلائم مزاجه، ويوافق تجربته، بغض النظر عن الحقائق والبراهين. لا شك أن الإنسان لم يزددْ بهذا إلا حيرةً وقلقًا واضطرابًا، وهو ما عبَّر عنه الشاعر الشهير إيليا أبو ماضي في قصيدته «الطلاسم»:

جئتُ، لا أعلم من أينَ، ولكني أتيتُ

ولقد أبصرت قُدَّامي طريقًا فمشيتُ

وسأبقىٰ ماشيًا إن شئتُ هذا أم أبيتُ

كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟

لستُ أدري

ويتمادى الشاعر في قصيدته الطويلة بأسئلته اللاأدرية[1]، وهو في ذلك لسان العالَم الجديد الذي هاجر إليه، فقد كان نصرانيًّا من لبنان، لكنه هاجر إلى أميركا (١٩١١)، وفيها ومنها اشتهر بين العرب، حتى لقب بشاعر المهجر، وتوفي فيها (١٩٥٧م).

لم تنقطع عن البشرية الرسالات الإلهية التي ترشد الناس إلى غاية خلقهم ومراد الله تعالى منهم، ومهما أصابت تلك الرسالات من التحريف والتبديل ـ كما حصل مع اليهودية والنصرانية ـ، أو تحولت إلى أديان وثنية انقطعت صلتها برسالة التوحيد الأولى؛ فقد ظلَّت الأديانُ تحمل مبادئ الاعتقاد في الربِّ، والعمل لمرضاته، والثواب والعقاب، فكانت بذلك تُقدِّم تفسيرًا لغاية الخلق؛ وإن كان فيه قليل أو كثير من التحريف والتبديل، والشرك والخرافة والأساطير، فما زالت البشرية على تلك الحال من الضلالة والجهالة

(١) «**ديوان إيليَّا أبو ماضي**» دار العودة، بيروت، د. ت. ١٩١-٢١٤.

والحيرة حتى بعث الله تعالى محمد بن عبد الله الهاشميَّ برسالته الخاتمة؛ كما قال ﷺ: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإنَّ الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمَقَتَهم عربَهم وعجَمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماءُ، تقرؤه نائمًا ويقظان**»[1]. فبلَّغ ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وأظهر الله تعالى به الدين الحقَّ الذي رضيه لعباده، وترك الأمة على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فمن كان من أهل الهدى والرشاد عرف الغاية من خلقه، والمقصد من وجوده في هذه الحياة الدنيا، فكان من أهل الطمأنينة والسكينة والسعادة، خلافًا للكافر الحيران: ﴿۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد].

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ.

وهذا البحثُ الموجزُ في بيان هذه المسألة في ضوء الوحي الإلهي، والهدي النبويِّ، فلم أتطرق فيه إلى شرح مذاهب الناس فيها، فذلك مما يطول الكلام فيه، والغرض فيه مخالف لغرض هذا البحث في تجلية سماحة الإسلام ومحاسنه من خلال النظر في تقريره لغاية الخلق ووظيفة الإنسان، لهذا جعلته في ثلاثة مباحث:

الأول: في الغاية من الخلق في عقيدة الإسلام.

الثاني: في دلائل سماحة الإسلام في بيان الغاية من الخلق والنظرة إلى الحياة الدنيا.

الثالث: في محاسن المنهج الإسلامي وآثاره الطيبة على الفرد والمجتمع.

ومن الله تعالى نستمد العون والتوفيق.

المبحث الأول

المبحث الأول:

في الغاية من الخلق في عقيدة الإسلام

ـ تنزيه الله تعالىٰ عن أن يكون خلقه من غير غاية مطلوبة وحكمة مقصودة:

نزَّه الله تعالى نفسَه المقدَّسة عن أن يكون خلقه عبثًا وباطلًا، فقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء]. فإذ لم يكن خلقه عبثًا ولا لعبًا، فلا بدَّ أن يكون بالحقِّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ

ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٦ ﴾ [الحجر]، والحقُّ هو الحكمة البالغة، والغاية المقصودة.

ـ إن الناس في معرفة هذا الأصل صنفان:

الأول: هم أولو العقول والبصائر، الذين أدركوا عظمة الخالق العظيم، وتأملوا في بدائع صنعه، وأدركوا آثار حكمته البالغة؛ فتواضعوا بين يديه، وأخبتوا إليه. وقد ذكر الله تعالى هذا الصنف في قوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾ [آل عمران].

والثاني: صنف جاهل بربِّه، غافل عن ربوبيته وأفعاله، معرض عن التفكر في آثار صفاته، يظنَّ هذا الوجود العظيم خِلْوًا من المقاصد الشريفة، والحِكَم البديعة. هذا حال الملحدين والمشركين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧ ﴾ [ص].

ـ الغاية من الخلق في كتاب الله تعالى:

لما كانت معرفة الغاية من الخلق بهذه الأهمية البالغة، سواء من جهة تعلقها بإرادة الله تعالى وعلمه وحكمته، أو من جهة أنها السؤال الأهم الذي يشغل بال الإنسان ويجهد تفكير؛ لهذا فإن الله تعالى لم يجعل الحكمةَ المقصودةَ من الخَلْق قضية مجهولة، ولا موضع غموضٍ وإشكالٍ يزيدُ الإنسان حيرةً وجهالةً واضطرابًا في هذه الحياة الدُّنيا، بل بيَّن الغاية بيانًا واضحًا، لا إشكال فيه ولا خفاء، ولا شكَّ أن هذا من ضروريات الرسالة الإلهية الذي جاءت لهداية الخلق: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل].

لقد جاء البيان المفصَّل للغاية التي خلق الإنسان لها في خبر الله تعالى وفي أمره:

أما الخبرُ: ففي قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، فأخبر تعالى أنَّه: «**خَلَقَ الخلقَ لعبادته**»[1].

وأمَّا الأمر: ففي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ

(١) قاله الإمام الشافعي رحمه الله في تفسيره للآية كما في «**الأم**» تحقيق: رفعت فوزي، دار الوفاء، القاهرة، ٥/ ٣٦١.

لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيِّنة]؛ «**فكلُّ واحدٍ لم يُؤمَرْ إلا بعبادة الله بما أَمَر، والإخلاصِ له في العبادة**»[1].

ذلك لأنَّ كلًّا من الخلق والأمر من الله تعالى وحده: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فمحالٌ أن يخلقَ الله تعالى خلقَه لغايةٍ، ثم يأمرَهم بغيرها، لأن هذا منافٍ لعلمه وعدله وحكمته ورحمته، لهذا جاء أمره لهم مطابقًا للغاية التي خلقهم لأجلها وهي «**العبادة**»، وجاء في كتاب الله تعالى من تجلية هذا الأمر، وتقريره، والتأكيد عليه؛ ما يناسب أهميَّته البالغة، ومنزلته العالية، حتَّى إنَّه ليمثِّل الموضوعات الأساسية في القرآن الكريم، ويمكننا الإشارة إلى بعض معالمها بهذه النبذة اليسيرة:

١) **أن الغاية من إرسال الرسل هي أمر العباد بعبادة الله تعالىٰ وحده لا شريك له**، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء]،

---

(١) قاله الإمام ابن قيِّم الجوزية رحمه الله في «**مدارج السالكين**»، دار الصميعي، الرياض: ١٤٣٢، ١/ ٣٤٨.

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف]؛ إلى غير ذلك من الآيات. وقال في تخصيص الرُّسل بأسمائهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، المؤمنون: ٢٣]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح]، ﴿* وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥، هود: ٥٠]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣، هود: ٦١]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

٢) أن الغاية من إنزال الكتاب هو تحقيق الأمر بعبادة الله وحده، كما قال تعالى في أول سورة الزُّمر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾، لهذا فإن الذين ينتفعون بهذا الكتاب هم المؤمنون المتَّقون المحسنون، وهم الذين يؤدون أهم شعائر العبودية العملية، وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، كما قال سبحانه في أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾، وفي أول سورة النَّمل: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣﴾، وفي أول سورة لقمان: ﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾.

٣) وأعظم أمرٍ في كتاب الله هو الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وأعظم نهيٍ فيه هو النهي عمَّا ينافي ذلك من الشرك والكفر والنفاق، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا

تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾[البقرة]، وهاتان الآيتان الكريمتان هما أول موضع في المصحف جاء فيه الأمر والنهي، وقد اشتملتا على أعظم مأمور به وهو عبادة الله عز وجل في قوله: ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾، وأعظم منهي عنه وهو الشرك في قوله: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ ۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿ ۞قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦ ﴾ [غافر]، وقال جلَّ شأنُه: ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ ﴾ [الزمر]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ ﴾ [الأنعام].

٤) وأعظم أسباب هلاك الأمم هو الشرك المنافي للغاية التي

خلقوا من أجلها، فقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم]؛ أي: «**فَعَلنا ذلك بهم؛ لأنَّ أكثرَهم كانوا مشركين باللهِ مثلَهم**»(١). وقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ [يونس: ١٣]، والظلمُ: الشِّرك، كما في قول لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]، وهلاك الأمم كلِّها كان بسبب الذنوب، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام]، وأعظم الذنوب وأقبحها ما ينافي إخلاص العبادة لله ربِّ العالمين، وهو الشرك، لهذا لمَّا سُئل النبيُّ ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك**»(٢).

٥) **والعبادة هي ميزان الآخرة والخلودِ الأبدي في الجنة أو النار**، فمن من حقَّق الغاية التي خلقه الله من أجلها، فعبد الله تعالى وحده،

---

(١) قاله ابن جرير الطبري في «**تفسيره**» دار هجر، القاهرة، ١٨/ ٥١٤.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولم يُشرك به شيئًا؛ دخل الجنة، ومن فوَّت هذه الغاية، وضيَّع معنى وجوده: دخل النَّار خالدًا مخلَّدًا فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [الأحقاف]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المائدة]، وقال النبي ﷺ: **«إنَّ الله تعالىٰ قد حرَّمَ علىٰ النَّار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وَجْهَ الله»**[1]، وقال ﷺ: **«مَن لقيَ الله لا يُشركُ به شيئًا دخلَ الجنَّةَ، ومن لقيه يُشركُ به شيئًا دخل النَّارَ»**[2].

وهذا يشمل حتَّى من كان حسن الخُلُق، طيب المعاملة، جميل العشرة، ذو آثار طيبة في الحياة الدنيا لكنَّه أخلَّ بالغاية التي خلق من أجلها، فلم يعبُد ربَّه، ولا عمل للآخرة، فمصيره كما قال الله تعالى عن الكافرين الذين لا يرجون لقاءَه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣) من حديث عِتبانَ بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩)، ومسلم (٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]. وعن عائشةَ قالت: قلت: يا رسول الله ابنُ جُدْعانَ، كان في الجاهليَّةِ يصل الرَّحمَ، ويُطعمُ المسكينَ، فهل ذاك نافعُه؟ قال: «**لا ينفَعُه، إنَّه لم يقُل يومًا: ربِّ اغفِر لي خطيئتي يومَ الدِّينِ**»(١).

هذا مصير الكافر الذي ضيَّعَ الغايةَ من وجوده، أما المسلم العابدُ الموحِّد، الذي لم ينقضْ أصل عبوديته لله بناقض من نواقض الإسلام؛ فإنه يدخل الجنةَ ولا بدَّ، فلا يُخلَّد في النَّار، حتى لو دخلها بسببِ ذنوبه ومعاصيه، وسوءِ أخلاقه، وظلمِه لعباد الله تعالى.

٦) **حقُّ الله أولًا وأصالةً، وحقوق الخلق ثانيًا وتبعًا**، لقد تبيَّن ممَّا تقدم في الفقرات السابقة أنَّ حقَّ الله تعالى هو أعظم الحقوق على المخلوق، وأنَّه مقدَّم على حقوق غيره، فهذه تأتي ـ مهما كانت

(١) أخرجه مسلم (٢١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عظيمةً وجليلةً ـ في درجةٍ ثانيةٍ بعد حقِّ الخالقِ العظيم، ربِّ السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقد تكرَّرت هذه الآية في موضعين من سورة النساء، الآية (٤٨) والآية (١١٦)، خُتمت الأولى بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾، وختمت الثانية بقوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾، وما هذا التكرار إلا للتنبيه والتأكيد على أهمية توحيد العبادة، وتقديمه على كلِّ حقٍّ سواه.

ولما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام]؛ شقَّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «**ليس كما تظنُّونَ، إنما هو كما قال لقمان لابنه:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾»[1].

مفهوم العبادة:

(١) أخرجه البخاري (٦٩٣٧)، ومسلم (١٢٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

إذا تبيَّن أنَّ الله تعالى خلق الخلق لعبادته، فهي الغاية العليا والمقصد الأسمى من وجود الإنسان على هذه البسيطة، وللأمر بها والنَّهي عمَّا يضادها وينافيها: أرسل الله رسله، وأنزل كتبه، ووضع شريعته، وأنَّ مصير الإنسان في الحياة الآخرة الأبدية يكون حسب موقفه من هذا الحقِّ الخالص لله ربِّ العالمين، إذا تبيَّن هذا: فإنَّ من المجمع عليه عند جميع المسلمين من أهل الملَّة والقِبْلة ـ على اختلاف فرقهم ومذاهبهم ـ أنَّ «**العبادة**» هي الصلاة والصيام والزكاة والحجُّ والذِّكر والدعاء، وكلُّ عملٍ صالحٍ يُراد به وجه الله تعالى، ويُبتغَى به مرضاته، والفوز والنجاة في الآخرة.

هذه هي «**العبادة**» في عُرف جميع المسلمين وفهمهم، وإنما يقع الخلافُ بينهم في أحكامها التفصيلية المتعلقة بأعيانها من جهة ثبوتها وضوابطها وشروطها وأركانها وصفاتها، ونحو ذلك من الأمور، فمن اتَّبع الكتاب والسنة ومنهاج السلف الصالح في جميع عباداته: اهتدى ورشد، ومن خالف ذلك بشركٍ أو غلوٍّ أو بدعةٍ أو هوًى فقد ضلَّ وغوَى، والمعصوم من عصمه الله تعالى وسدَّده ووفَّقه.

والمقصود: أنَّ المسلمين ـ منذ عهد النبي ﷺ وحتَّى العصر

الحاضر ـ لم يفهموا «**العبادة**» ـ التي هي وظيفتهم في هذه الحياة، والغاية من خلقهم ـ إلا أنَّها هذه العبادات التي شرعها الله تعالى لعباده وأمرهم بإقامتها ووعدهم بالثواب الحسن عليها. فهذا القدر هو الأصل الكليُّ لأهل السنَّة والجماعة، ووافقهم عليه جميعُ الفرق الإسلامية كالخوارج والمرجئة والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية والصوفية، ولم يخالفْ هؤلاء ويشذَّ عنهم إلا الباطنيةُ الزنادقةُ من غلاة الفلاسفة وغلاة الصوفية وأشباههم، وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة والملَّة الإسلامية، فمن أراد معرفة حقيقة العبادة وماهيَّتها فليرجع إلى مصنَّفات جميع الفرق والمذاهب الإسلامية في مختلف العلوم الشرعية، مثل الاعتقاد، والتفسير، وشروح السنة، والفقه وأصوله، والسلوك والتزكية، بل حتَّى علوم اللغة والأدب والتاريخ وغيرها[1]، ولَيَجدنَّ تصورهم عن ماهيَّة العبادة وحقيقتها واحدًا؛ وإن تنوعت عباراتهم، واختلفت مناهجهم، وانحرفوا في قليلٍ أو كثيرٍ من مسائل الاعتقاد والعمل، ولَيُلاحِظَنَّ أنَّ تعريفاتهم لمفهوم

(١) هذه الإحالة لمعرفة القدر الكليِّ المشترك في هذه المسألة تحديدًا، وإلَّا فإنِّي لا أنصح القارئ في أمر دينه إلا بكتب أهل السنة والجماعة الذين هم على منهج السلف الصالح.

«**العبادة**» لا تخرج عن اثنين:

إمَّا أن يعرِّفوها بحسب ماهيَّتها.

وإمَّا أن يعرِّفوها بالمثال، فيذكروا أنواعها وأفرادها.

أما تعريف «**العبادة**» من حيث حقيقتها وماهيتها؛ فزُبدة كلام العلماء فيه[1]: أنَّها إفراد الله تعالى بالطاعة مع التذلُّل والخضوع

---

(١) منهم: أبو جعفر ابن جرير الطبريُّ (ت: ٣١٠) في «**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**» ١/ ١٥٩ [الفاتحة: ٥]، وأبو إسحاق الزجَّاج (ت: ٣١١) في «**معاني القرآن وإعرابه**»، عالم الكتب، بيروت: ١٤٠٨، ١/ ٤٩، وأبو بكر ابنُ الأنباريِّ (ت: ٣٢٨)، كما في «**تهذيب اللغة**» لأبي منصور الأزهري (ت: ٣٧٠)، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢٠٠١م، ٢/ ١٤٠، وابن سِيده الأندلسيُّ (ت: ٤٥٨) في «**المخصَّص**»، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤١٧، ٤/ ٦٢، وأبو المظفر السمعانيُّ (ت: ٤٨٩) في «**تفسير القرآن**»، دار الوطن، الرياض: ١٤١٨، ١/ ٣٧ [الفاتحة: ٥]، والراغب الأصبهانيُّ (ت: ٥٠٢) في «**المفردات في غريب القرآن**»، دار القلم، بيروت: ١٤١٢، ٥٤٢، مادة: (**عبد**)، ٣٩٧، مادة: (**سجد**)، والزمخشريُّ المعتزليُّ (ت: ٥٣٨) في «**الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**»، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٤٠٧، ١/ ١٣ [الفاتحة: ٥]، وعبد الحق ابن عطيَّة الغرناطيُّ (ت: ٥٤١)، «**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**»، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٢٢، ١/ ٧٢ [الفاتحة: ٥]، والفخر الرازيُّ (ت: ٦٠٦)، «**التفسير الكبير**»، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤٢٠، ١/ ٢٠٨ [الفاتحة: ٥]، ١٧/ ٣١٤ [هود: ٢]، وأبو العبَّاس ابن تيمية الحنبليُّ (ت:

والخوف، على وجه الإجلال والتعظيم والمحبَّة. فالعبادة ليست تذللًا مجرَّدًا، ولا هي مرادِفة للطاعة[1]، ولا هي مطلقُ الطاعة، بل تذلُّلٌ وخضوعٌ تامٌّ، وطاعةٌ مخصوصةٌ، مقترنةٌ بالنية والإخلاص، والمحبة التامَّة، والتعظيم التامِّ، ولخَّص **ابن القيِّم** رحمه الله (ت: ٧٥١) ذلك بقوله: «**العبوديةُ قامت علىٰ ساقين لا قِوَام لها بدونهما: غايةُ الحبِّ مع غايةِ الذلِّ**»[2].

أما تعريفُ العبادة من حيثُ أنواعها وأفرادها، فيكفي في ذلك

---

٧٢٨) في «**مجموع الفتاوىٰ**» الطبعة السعودية القديمة، ١٠/ ٢٤٩، وابن كثير الدمشقيُّ (ت: ٧٧٤) في «**تفسير القرآن العظيم**» [الفاتحة: ٥]، وأبو إسحاق الشاطبيُّ (ت: ٧٩٠) في «**الموافقات**» تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، دار ابن عفان، السعودية: ١٤١٧، ٣/ ١٥٠، وابن رجب الحنبليُّ (ت: ٧٩٥) في «**كلمة الإخلاص وتحقيق معناها**»، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٣٩٧، ٢٧. ونقلت أقوالهم بحروفها في كتابي: «**مقدمة في تفسير الإسلام**».

(١) الألفاظ المترادفة هي التي يقام لفظٌ مقامَ لفظٍ لمعانٍ متقاربة يجمعها معنى واحد. انظر: «**المزهر**» للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٨، ١/ ٣٣.

وراجع في بيان الفرق بين العبادة والطاعة والرد على من ساوى بينهما كتاب: «**معنىٰ لا إله إلا الله**» للشيخ عمر بن أحمد المليباري رحمه الله، بتقديم وتعليق الباحث، مركز دراسات تفسير الإسلام، بريطانيا.

(٢) «**الداء والدواء**»، دار عالم الفوائد، جدة: ١٤٢٩، ص: ٣١٥.

كلام شيخ الإسلام **ابن تيمية** رحمه الله، الذي استحسنه العلماء من بعده، واشتهر بين الخاصة والعامة وهو قوله: «**العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلىٰ الجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله. وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها**»[1].

(١) «رسالة العبوديَّة» ضمنَ: «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/ ١٤٩.

المبحث الثاني

المبحث الثاني:

دلائل سماحة الإسلام في بيان الغاية من الخلق والنظرة إلى الحياة الدنيا

أولًا: سماحة الإسلام في شعائره وأحكامه لتحقيق غاية الخلق:

جعل الله تعالى هذا الدين الحق الذي رضيه لعباده في الدرجة العليا من السماحة والتيسير ومراعاة قدرة الإنسان واستطاعته، كما جعل الله تعالى هذا التكليف الدينيَّ كافيًا في قيام الإنسان بالغاية التي خلق من أجلها، وأدائه للأمانة التي حَمَلها، دون إيقاع حرج عليه، ولا إضرار به، بل لم يجعل العبادات ـ التي هي لبُّ الدين ومقصده الأهم ـ مستغرقة لجميع أوقاته، فليس لها إلا وقتها المعلوم، ورغم أنها محصورة محدودة، فإن العبد المؤمن إن التزم بها يحقق مقصود وجوده في هذه الحياة، وينال السعادة الأبدية في الآخرة.

لقد تواترت الأحاديث في أن النبيَّ ﷺ كان يعلِّم من أسلم أركان الإسلام الخمسة: الشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج،

فربَّما قال له المسلم الجديد: والله، لا أزيد على هذا، ولا أنقص منه. فيُقره النبي ﷺ على ذلك بقوله: «**أفلح إنْ صدَق**»، أو بقوله: «**لئن صدق ليدخلنَّ الجنة**»[1].

ومن تأمل في هذه الأركان أخبر النبيُّ ﷺ أن كافية في نيل الفلاح وحصول النجاة؛ وجدها أعمال يسيرة، محدودة، لا تحتاج إلى أوقات مديدة، ولا أعمال شاقة منهكة.

أما الصلوات الخمس فمجموع ركعاتها المفروضة في اليوم والليلة سبع عشرة ركعة، وبين كل صلاة وصلاة وقت كافٍ يتمكن الإنسان من الانصراف إلى أعماله، ورعاية مصالحه الدنيوية.

أما الزكاة فلا تجب في الأموال إلا بشروط معروفة في كتب الفقه؛ وهي في الجملة قدر يسير جدًّا من مجموع ما يمتلكه المسلم ويكسبه.

والصيام المفروض شهرٌ واحد في السنة، ووقته من طلوع الفجر حتى غروب الشمس، فلا يستغرق اليوم كله، ولا أيام السنة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥٦)، ومسلم (١١) من حديث طلحة بن عُبيد الله ﷺ، وأخرجه البخاري (١٣٩٧)، ومسلم (١٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه مسلم (١٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وأخرجه مسلم (١٥) من حديث جابرٍ ﷺ.

كلها.

أما الحج إلى بيت الله الحرام فمرَّة واحدة في العمر، بالشرط الذي ذكره الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ فمن لم يجد السبيل فلا حرج عليه.

وهذه العبادات الخالصة، التي هي أركان الإسلام، وأهم شعائر الدين؛ تدخل عليها ـ أيضًا ـ أحكام الرخصة والتيسير، مثل: قصر الصلاة وجمعها للمسافر، وإفطار المسافر والمريض كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والترخُّص في أركان الصلاة والحجِّ لذوي الأعذار؛ كما قال النبيُّ ﷺ في صلاة المريض: «**صلِّ قائمًا، فإنْ لم تستطعْ فقاعدًا، فإن لم تستطعْ فعلىٰ جَنْبٍ**»[1].

إلى غير ذلك من الرخصة والتيسير والتسهيل الذي يذكره الفقهاء في مختلف أبواب العبادات والمعاملات على وجه الاستيعاب والتفصيل.

والمقصود: أن «**العبادة**» التي هي غاية الخلق وحكمة الوجود؛

(١) أخرجه البخاري (١١١٧) من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه.

يستطيع المسلم أن يؤديها على وجه صحيح مقبول دون أن يستغرق ذلك جميع وقته، أو يشق عليه، ويذهب بقوَّته، ويعطله عن مصالحه المعيشية.

أما أبواب الشريعة التي جاءت خادمة لمقصد العبادة ـ كالمعاملات والمناكحات والجنايات والحدود والقصاص وغيرها ـ فمبناها ـ أيضًا ـ على السماحة والتيسير ورفع الحرج، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وقال سبحانه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وقال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أُرسلتُ بحنيفيةٍ سَمحةٍ**»[(١)]، وقال ﷺ: «**يسروا ولا تعسروا، وبشِّروا ولا تنفروا**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**إن الدين يسرٌ، ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيءٍ من الدُّلْجة**»[(٣)]، وقال ﷺ: «**إنَّ الله يحبُّ أن تُؤتىٰ رخصه، كما يكره أن**

(١) أخرجه أحمد (٢٤٨٥٥) من حديث عائشة رضي الله عنها، بإسناد حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تُؤتىٰ معصيتُه»[1].

ومن القواعد الفقهية الكبرى: «**المشقَّة تجلب التيسير**»[2]، وهي قاعدة جامعة يتخرج عليها جميع رخص الشرع وتخفيفاته[3].

ومن القواعد الفقهية أيضًا: «**الأصل في العبادات الحظر والتوقيف، والأصل في العادات الحل والإباحة**»[4].

ومن فوائد هذه القاعدة في شطرها الأول: منع الغلو في التعبُّد، كما حصل في كثير الأمم السابقة، وعند بعض الفرق الإسلامية من التزام عبادات وأحوال محدثة، والتشديد على النفس بالانقطاع عن الدنيا، وترك ملذاتها المباحة، كالرهبانية التي ابتدعها النصارى، كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا

(١) أخرجه أحمد (٥٨٦٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

(٢) «**الأشباه والنظائر**» للتاج السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١١، ١/ ٤٩، «**المنثور في القواعد الفقهية**» للزركشي، وزارة الأوقاف الكويتية: ١٤٠٥، ٣/ ١٦٩.

(٣) قاله السيوطي في «**الأشباه والنظائر**» ١/ ٧٦.

(٤) انظر: «**أعلام الموقعين**» لابن القيم، دار ابن الجوزي، السعودية: ١٤٢٣، ٣/ ١٠٧.

ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ [الحديد: ٢٧].

لقد نهى رسول الله ﷺ عن هذا المسلك نهيًا قاطعًا، كما في قصة الثلاثة الذين يسألوا عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسولُ الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس منِّي**»[1].

ومن فوائدها في شطرها الثاني: فتح المجال واسعًا أمام المسلمين لاستغلال خيرات الأرض التي سخرها الله تعالى لبني آدم، واستخراج ما فيها من وسائل الارتفاق والراحة والاستمتاع في مصالح الحياة ومجالاتها ومراتبها المختلفة من الضروريات والحاجيات والكماليات.

لقد امتنَّ الله على عباده بنعمة «**التسخير**» في مواضع من كتابه،

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

منها قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وأمر الله تعالى عباده بالانتفاع بما خلقه لهم ـ أمرَ إباحة لهم، وامتنان عليهم ـ؛ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة]، ثم بيَّن الله تعالى بعد هذه الآية أن المحرمات قليلة محدودة؛ فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة].

وهكذا جاءت المحرمات في أكثر من آية بصيغة الحصر، إرشادًا إلى

أن ما عداها فالأصل فيه الحل والإباحة، حتى يقوم على تحريمه ومنعه دليل خاصٌّ؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام].

ثانيًا: سماحة الإسلام في جعل الدنيا وسيلة خادمة لا غاية مقصودة:

ومن دلائل سماحة الإسلام أن جعل هذه الحياة الدنيا، ومكتسباتها المادية، وانجازاتها الزائلة؛ «**وسيلة**» خادمة للغاية المقصودة، وهي إقامة العبودية لله تعالى وطلب النجاة الأخروي. فلم يحمِّل الله تعالى عبادَه العنتَ، ولا كلَّفهم ما هو فوق طاقتهم

واستطاعتهم؛ من **عمارة الأرض**، وإقامة **المدينة الفاضلة**، ونيل المكاسب المادية من الغنى والرخاء والرفاهية.

إن النصوص الصريحة من القرآن الكريم والسنة النبوية تؤسس للمسلم عقيدة واضحة راسخة في نظرته إلى الحياة الدنيا وحقيقها بأنَّها دار عبور وانتقال، يؤدي فيها المسلم مهمته في عبادة الله تعالى وطاعته والسعي للفوز الأبدي في الدار الآخرة. لهذا فإن المسلم لا يتجاوز في نظرته إلى الدنيا على أنها وسيلة لا غاية، خادمة لا مخدومة، فلا يحرص عليها، ولا يسعى في عمارتها إلا بالقدر الذي يحتاجه حتى يمضي في سبيله، ويبلغ مقصوده.

كذلك يعتقد المسلم أنَّ هذه الحياة الدنيا لا يمكن أن يقام فيها العدل المطلق، ولا الحقُّ المطلق، ولا الخير المطلق، ولا «**المدينة الفاضلة**» بتصورات الفلاسفة المثالية الخيالية، لأنها دار ابتلاء واختبار وامتحان، وأهلها مبتلَوْن بعضهم ببعض بما جعل الله تعالى بينهم من التفاوت في العلم والعمل والقوة والسلطة والمال والجاه، وبما يقع من بعضهم على بعض من الظلم والبغي والفساد، وبما جعل فيها من الأمراض والأوجاع والآلام والنقص والآفات، كلُّ

ذلك ابتلاءً منه سبحانه وامتحانًا، كما قال سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [تبارك]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٦٥﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [محمد: ٤]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٧١﴾ [النحل]، والآيات في هذه المعاني كثيرة، فإقامة المجتمع المثالي أو المدينة الفاضلة في هذه الحياة الدنيا محالٌ، لكن يتحقَّق من ذلك بحسَبِ ما يحقِّق المؤمنون الصالحون منه في أنفسهم ومجتمعهم، ومهما يفعلوا فهم الأقلُّون دائمًا بين الناس كما أخبر الله تعالى في كتابه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٢٤٣﴾ [البقرة]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٧﴾ [الأعراف]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٧﴾ [هود]، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف].

لهذا كلِّه فإنه لا يردُ في كتاب الله ﷻ وأحاديث الرسول ﷺ ذِكْرُ «**الحياة الدنيا**» وما فيها من المكاسب المادية والمتع الزائلة؛ إلا على سبيل التزهيد فيها، والتقليل من شأنها، والتحذير من الانشغال بزخرفها عن عبادة الله والدار الآخرة، والإخبار أنَّ طُلَّابَها والعاملين من أجلها هم الخاسرون الأرذلون يوم القيامة، والآيات والأحاديث في هذه المعاني كثيرة وافرة:

قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ

وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤ ﴾[العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ ﴾ [هود].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢ ﴾[الأنعام].

وعن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعث أبا عُبيدة بن الجرَّاح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمِعَتِ الأنصارُ بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاةَ الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «**أظنُّكم سمعتم أنَّ أبا عبيدة قدم بشيءٍ من البحرين؟**»، فقالوا: أجل يا رسول الله، فقال:

«**أبشروا، وأَمِلُّوا ما يسرُّكم، فوالله ما الفقرَ أخشىٰ عليكم، ولكنِّي أخشىٰ أن تُبسط الدنيا عليكم كما بسطت علىٰ من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلكَكُم كما أهلكَتهم**»[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنَّ رسول ﷺ قال: «**إنَّ الدنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ، وإن الله تعالىٰ مستَخْلِفُكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتَّقوا الدنيا واتقوا النساء**»[(٢)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا سِجْنُ المؤمن، وجنَّة الكافر**»[(٣)].

وعن ابن عمر ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «**كُن في الدنيا كأنك غريبٌ، أو عابر سبيل**»، وكان ابن عمر ﷺ يقول: **إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**[(٤)].

لقد نظر العلماء إلى هذه نصوص الكتاب والسنة على وجه

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٩٦١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٥٦).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

التتبع والاستقراء؛ فتبيَّن لهم أن مقصود الشارع الحكيم هو عمارة الدار الآخرة، وصلاح أحوال المكلفين فيها بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار، وأن عمارة الحياة الدنيا وسيلة خادمة لذلك المقصود الأعظم، فالعمل في إصلاحها، والاهتمام بها، والقيام على عمارتها؛ ليس مقصودًا للشارع الحكيم ابتداء وأصالة، بل هو مقصود بدرجة ثانوية تبعًا، قصد الوسائل لا الغايات، إقامةً للعبودية لله تعالى، وامتثالًا لشريعته، واستعانة على ما يكون فيه عمارة الدار الآخرة، لهذا وضع للعباد شريعةً هاديةً فيها صلاحُ أمرِ دنياهم في المعاملات والتجارات والصنائع والأنكحة والأقضية والوِلايات والعقوبات وسائر شؤونهم. وهذه الأحكام مطلوبة لأنها وسائل وأسباب تعين المكلَّفَ على القيام بما خُلقَ من أجله من عبادة الله والعمل للآخرة، وهذا من كمال الشريعة ومحاسنها؛ «**ولا يتصوَّر شرعٌ فيه صلاحُ الآخرة دون الدُّنيا، فإن الآخرة لا تقوم إلا بأعمال في الدنيا مستلزمةٍ لصلاح الدنيا، وصلاحها غيرُ التناول لفضوله**»[1]، فلا ينشغل بها انشغاله بالمقاصد والغايات.

(١) قاله ابن تيمية كما في «**جامع المسائل**» تحقيق: محمد عُزير شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة: ١٤٢٢، ٦/ ١٥١.

وفي تقرير هذا الأصل المهم قال **إمام الحرمين أبو المعالي الجويني** (ت: ٤٧٨): «**فإنَّ الدنيا إنما تُرعَىٰ من حيث يُستَمَدُّ استمرارُ قواعد الدين منها، فهي مرعيةٌ علىٰ سبيل التبعية، ولولا مسيسُ الحاجة إليها علىٰ هذه القضية؛ لكانت الدنيا الدَّنيَّة حَرِيةً بأن نُضْرِبَ عنها بالكليَّة**»[(١)].

وسبقه إلى هذا المعنى **أبو حامد الغزَّاليُّ** (ت: ٥٠٥) مقرِّرًا أهمية إصلاح نظام الدنيا بالقدر الحاجيِّ الخادم لنظام الدِّين؛ فقال: «**نظامُ الدِّين بالمعرفة[(٢)] والعبادة لا يُتوصَّل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات، والأمن هو آخر الآفات، ولعمري من أصبح آمنًا في سِرْبه، معافًىٰ في بدنه، وله قوت يومه؛ فكأنَّما حيزتْ له الدنيا بحذافيرها، وليس يأمن الإنسانُ علىٰ روحه وبدنه وماله ومسكنه وقوته في جميع الأحوال بل في بعضها، فلا ينتظم الدِّين إلا بتحقيق**

---

(١) «**غياث الأمم في التياث الظلم**»، تحقيق: عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، القاهرة: ١٤٠١، ص: ١٥٢.

(٢) يتكلم الغزالي بمصطلحاته الكلامية والصوفية، ومنها: «**المعرفة**»، والصواب: «**بالإيمان والتوحيد**».

الأمن علىٰ هذه المهمات الضروريَّة، وإلا فمن كان جميعَ أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة؛ متىٰ يتفرَّغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلىٰ سعادة الآخرة؟! فإذن بَانَ نظامُ الدنيا، أعني مقادير الحاجة شرطٌ لنظام الدِّين»[1].

وقال **الفخر الرازي** (ت: ٦٠٦): «إنَّ الله تعالىٰ خلق الآدميين للعبادة لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات]، والحكيمُ إذا أمَرَ عبدَه بشيءٍ فلا بدَّ وأن يُزيح عُذْره وعلَّته، ويسعىٰ في تحصيل منافعه، ودفع المضارِّ عنه، ليصير فارغَ البال، فيتمكَّن من الاشتغال بأداء ما أمره به، والاجتناب عمَّا نهاه عنه، فكونه مكلَّفًا يقتضي ظنَّ أنَّ الله تعالىٰ لا يَشْرَعُ إلَّا ما يكون مصلحةً له»[2].

وقال **عبد الرحمن ابن خلدون** (ت: ٨٠٨): «إنَّ الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط؛ فإنَّها كلَّها عبثٌ وباطلٌ، إذ غايتها الموتُ

---

(١) «**الاقتصاد في الاعتقاد**» تحقيق: د. إبراهيم جوبوقجي، وحسين آتاي، كلية الإلهيات بجامعة أنقرة: ١٩٦٢م، ٢٣٥.

(٢) «**المحصول في علم أصول الفقه**» تحقيق: د. طه جابر العلواني، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤١٨، ٥/ ١٧٤.

والفناءُ، والله يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلىٰ السعادة في آخرتهم: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورىٰ: ٥٣]، فجاءت الشرائعُ بحملهم علىٰ ذلك في جميع أحوالهم من عبادةٍ ومعاملةٍ، حتىٰ في المُلْك ـ الذي هو طبيعيٌّ للاجتماع الإنسانيِّ ـ فأجرته علىٰ منهاج الدين ليكون الكلُّ محوطًا بنظر الشارع»[1].

لقد اتفقت كلمة علماء الإسلام على هذا الأصل، أعني جعل الدنيا وسيلة خادمة للدين، ولم يخالفهم فيه إلا غلاة الفلاسفة وغلاة الصوفية والباطنية؛ فزعموا أن الدين هو الوسيلة، والغاية هي الدنيا بعمارتها، وإقامة المدينة الفاضلة فيها. وتأثر كثيرٌ من المفكرين الإسلاميين في هذا العصر بهذه النظرة الفلسفية المخالفة لأصل الوحي والنبوة والشريعة، فصاروا يقررون بأن الدين ـ حتى العبادات الأصلية المحضة ـ إنما هو وسيلة لتهيئة الإنسان للقيام بعمارة الأرض وإقامة الحكومة العادلة والمجتمع الفاضل. فجعلوا الدين وسيلة، والدنيا غاية، فقلبوا حقائق الإسلام الكبرى رأسًا على

(١) «**مقدمة ابن خلدون**»، دار الفكر، بيروت: ١٤٠١، ص: ٢٣٨.

عقبٍ[1].

ثالثًا: جعل خيرية الإنسان في الإيمان والعمل الصالح، لا في عمارة الأرض والانجاز المادي:

كتاب الله تعالى صريحٌ في أن خيرية الإنسان وفضله ومنزلته إنما هي بالإيمان الصحيح والعمل الصالح، لا بالمال والجاه والسلطة والقوة، ولا بما يحصِّله من العلوم الدنيوية، والإنجازات المادية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾[البينة].

والغالب أن الله تعالى يعطي الكفار من متع الدنيا وحطامها أكثر مما يعطي المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾ [التوبة]، وقال سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٩٧ لَٰكِنِ

(١) راجع شرح هذه الجملة توثيقًا ومناقشة في كتابي: «**مقدمة في تفسير الإسلام**».

ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ ﴾ [آل عمران].

وأخبر الله تعالى عن بعض الأمم التي أهلكها لشركهم وتكذيبهم بالرسالة؛ أنهم كانوا أصحاب قوة وعمارة وصناعة وتمكين، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦ ﴾ [الأنعام]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥ ﴾ [غافر]، وفي قصة هود عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١ ﴾، فقال الله تعالى في عاقبة أمرهم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ ﴾ [الشعراء: ١٣٩].

لهذا أمر الله تعالى نبيَّه الكريم ﷺ ألَّا يلتفت إلى الجانب المادي من معيشة الكفار فقال عزَّ شأنه: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾[التوبة].

كما أمره ربُّه أن يصبر مع المؤمنين الصادقين الذي يغلب عليهم حال الفقر والقلة والعوز، والضعف في الإمكانات المادية والمكاسب الدنيوية، فقال سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف].

رابعًا: مجانبة الصراع على الدنيا والمغالبة عليها:

إذا أدرك الإنسان أن مهمته في هذه الدار عبادة الله تعالى وطاعته وطلب مرضاته، للفوز والنجاة في الآخرة، وأن هذه الحياة ليست إلا سفرًا قصيرًا، وأن الدنيا بكل ما فيها لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة؛ فإنه يُقبل بكلِّيَّته على العمل لآخرته، ويزهد في الدنيا، ولا يجعل هدفه منها المال والجاه والسلطة، فلا يصارع بني جنسه

في المغالبة عليها، ولا يهلك نفسه في أوديتها، بل يختار السلامة في دينه، ويضع نصب عينيه يوم الحساب والجزاء:

إنَّ لله عبادًا فُطَـــــنا ... طلَّقوا الدنيا وخافوا الفتنا

فكَّرُوا فيها فلمَّا علموا ... أنها ليستْ لحيٍّ وطنـــا

جعلوها لُجَّةً واتخـذوا ... صالح الأعمال فيها سُفُنا[1]

وإذا كانت الشريعة المطهرة قد حفظت الحقوق، وأمرت برفع الظلم، ودفع البغي، وشرعت القتال دون النفس والعرض والمال، ووضعت لذلك أحكامًا تفصيلية كفيلة بإقامة العدل بين الناس؛ إلا أنها لم تجعل هذه الأمور الدنيوية أكبر همِّ المسلم، ولا أعظم مطلبه، بل رغَّبت في البذل والمسامحة والعفو والصفح حتى تكون المصارعة بين بني البشر على أمور الدنيا في أدنى درجاتها، ويكون همهم طلب ما وعد الله به الصابرين والعافين عن الناس من الثواب الجزيل والأجر العظيم، كما قال سبحانه: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور].

(١) ذكر ابن بشكوال في «**الصلة**» ٥٤٥، أن العلامة الفقيه أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت: ٥٢٠) رحمه الله كان كثيرًا ما ينشد هذه الأبيات.

وقال تعالى في إقامة العدل والإرشاد إلى الفَضْل: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى].

وقال تعالى في العفو عن الجاني والقاتل: ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ ﴾ [النساء: ٩٢].

وقال تعالى في الصبر على المدين: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وقال سبحانه في المنهج الأمثل للتعامل بين الناس: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران].

خامسًا: الحثُّ علىٰ المنافسة في الأعمال الصالحة والمسابقة إلىٰ الدار الآخرة:

إن تربية المؤمنين على الزهد في الدنيا، والإعراض عنها، وعدم المغالبة عليها؛ ليس للتشديد عليهم، وحرمانهم من الملذات، إنما اختيارًا لما هو خير وأولى وأبقى لهم، وإلا فإن متاع الحياة الدنيا مباح لكل أحدٍ، مؤمنًا كان أم كافرًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف]. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ـ في تفسير هذه الآية ـ: شارك المسلمون الكفارَ في الطيبات؛ فأكلوا من طيبات طعامها، ولبسوا من خِيار ثيابها، ونكحوا من صالح نسائها، وخلصوا بها يوم القيامة، وذلك أن الزينة في الدنيا لكلِّ بني آدم، فجعلها الله خالصة لأوليائه في الآخرة[1].

لهذا فقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتنافس في الأعمال الصالحة، والمسابقة في السير إلى الدار الآخرة، فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال سبحانه: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «**تفسيره**» [الأعراف: ٣٢].

وأخبر عزَّ وجلَّ أن المسارعة في الخيرات من صفات الموحدين المخلصين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون].

أما الأحاديث في الحث على أعمال الآخرة فكثيرة جدًّا، تعدُّ بالمئات بل الآلاف، وقد جمع العلماء أكثرها في كتب فضائل الأعمال والترغيب والترهيب، ونكتفي هنا بذكر حديث واحدٍ، وهو قول النبي ﷺ: «**لو يعلم الناسُ ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التَّهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمونَ ما في العَتَمَة والصُّبح؛ لأتوهما ولو حَبْوًا**»[1].

(١) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المبحث الثالث

المبحث الثالث:

في محاسن المنهج الإسلامي
وآثاره الطيبة على الفرد والمجتمع

ذلك هو المنهج الإسلامي في النظرة إلى الحياة الدنيا في ضوء الاعتقاد بغاية الخلق، ووظيفة الإنسان فيها. إنه المنهج الإلهي الحقُّ الذي يهدي إلى الخير والرشاد، ويكفل بصلاح أحوال الناس في أمور دينهم ودنياهم، فهو كثير المحاسن، طيب الآثار، عظيم المصالح والمنافع.

إن من عرف ما هو، ومن أين جاء، وإلى أين يمضي، ومن هو ربُّه ونبيُّه ودينه؛ لا شكَّ أنه سيشعر بالراحة والطمأنينة، وسكينة النفس، وتذهب عنه الحيرة والقلق والاضطراب، فإذا علم ـ أيضًا ـ أن هذه الحياة الدنيا إنما هي دار ابتلاء وامتحان، وأنها وسيلة غير مقصودة لذاتها؛ لم يجعلها أكبر همه، ولا مبلغ علمه، ولا يهلك نفسه من أجل الصراع على زينتها وزخرفها.

هذه العقيدة الصحيحة، والرؤية الواضحة؛ هي التي تؤسس للأخلاق الفاضلة، والسلوك الأقوم للإنسان مع الخلق أجمعين من

بني جنسه ومن الحيوان بل حتى الشجر والحجر، أو ما يسمى اليوم بالتعامل مع البيئة، لأنه يمتثل بالأمر الإلهي: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف].

نعم؛ هذه العقيدة هي التي تبني الأخلاق الأصيلة الصادقة، النابعة من أعماق المؤمن، فيسارع إلى الخيرات، ويطرق أبواب الرحمة بالخلق؛ تحركه روح التضحية والبذل والعطاء والاحتساب، من غير استعلاء ولا منٍّ ولا أذى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان].

لقد ابتليت البشرية بفلسفات ونظريات جعلت الغاية من الخلق في عمارة الأرض، وتحقيق السعادة الدنيوية؛ فلم تزدد النفوس بذلك إلا شقاء وحسرة واضطرابًا، ولم تزدد في سلوكها إلا أنانية وانكبابًا على الملذات والشهوات. ومن نظر في أحوال أهل «**المدينة الفاضلة**» كما صوَّرها الفيلسوف **أبو نصر الفارابي** (ت: ٣٣٩)[1]؛ لوجدها ضربًا من الخيال، وأدرك أن جعلها غايةَ الاجتماع الإنساني

(١) انظر كتابه: «**آراء أهل المدينة الفاضلة**»، دار المشرق، بيروت: ١٩٦٨، ص: ١١٧ وما بعدها.

ضربٌ من الجنون المخالف للحكمة الإلهية الكونية القدرية من هذا الوجود: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف]، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥﴾ [البقرة].

وابتليت البشرية في العصر الحديث بالفلسفات والنظريات الإلحادية والمادية والنفعية، فظهرت **الرأسمالية والماركسية والاشتراكية والشيوعية**، والمذاهب النفعية **والبراغماتية**، ومهما كان بينها من اختلاف وتناقض فإنها عملت ـ جميعًا ـ على أن يجمع الإنسان كليَّته على تعظيم المادة، والانكباب على الحياة الدنيا، والجحود بالجانب الرُّوحي والغيبي، وصار معيار الحقِّ والخير فيما هو نافع في العاجلة، بعيدًا عن ميزان الحقِّ والنبوة والديانة والآخرة، وما أصدقَ ما قاله الكاتب والصحفي والمفكر الشهير **محمد أسد** (١٩٠٠-١٩٩٢م): «**إنَّ الأوروبيَّ العاديَّ ـ سواءٌ عليه أكانَ ديمقراطيًّا أم فاشيًّا، رأسماليًّا أم بلشفيًّا، صانعًا أم مفكِّرًا ـ يعرف دينًا إيجابيًّا واحدًا هو: «التعبُّدُ للرقيِّ الماديِّ»، أي: الاعتقادُ بأنْ ليسَ في**

الحياة هدفٌ آخرُ سوىٰ جعل هذه الحياة نفسها أيسرَ فأيسر، أو كما يقول التعبير الدَّارجُ: طليقةً من ظُلم الطَّبيعة!»[1].

فماذا كانت ثمرة هذه الحضارة المادية المعاصرة؛ إلا زيادة شقاء الإنسان معنويًّا، وإن وفرت له أسباب الغنى والرفاهية والإمكانات المادية، فعلى المستوى الفردي؛ انتشرت الأمراض النفسية، وصارت أغنى الدول وأكثرها رفاهية واستقرارًا ـ كمملكة السويد ـ؛ أشهر الدول في حالات الانتحار[2]، واستحكمت روح الأنانية، فتفككت الأسر، وصار عقوق الوالدين سلوكًا عامًّا، وانكبَّ كل شخص على تحصيل المكاسب والامتيازات لخاصة نفسه،

(١) «**الإسلام علىٰ مفترق الطُّرق**» ترجمة: عمر فرُّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٤٩.

(٢) نقرأ في إحصاءات معهد كارونيلسكا Karolinska Institutet في مملكة السويد أنَّ معدَّل عدد المنتحرين في السويد يبلغ (١٧٠٠) شخصًا في كلِّ عامٍ، وأن مجموع أعداد المنتحرين خلال (٣٧) سنة بلغ: (٦٣٥٠٢) شخصًا ممن أعمارهم فوق سن الخامسة عشر، وأكثرهم من الرجال، وذلك خلال المدَّة من سنة (١٩٨٠)، وكان عدد سكان السويد حينها: خمسة ملايين نسمة، وحتى سنة (٢٠١٦)، وقد بلغ عدد السكان قريبًا من عشرة ملايين نسمة. المصدر موقع المعهد المذكور:
https://ki.se/nasp/sjalvmord-i-sverige-0

وكثرت جرائم القتل والاغتصاب والسرقة وتجارة المخدرات والإدمان عليها.

وهذه الروح المادية زادت من حدة الصراع على الدنيا، مما حمل الإنسان المعاصر على ارتكاب أقبح الجرائم والفضائح في حقِّ أخيه الإنسان حتى يستولي على ثرواته، ويستغل إمكانياته وقدراته.

إن دعاة هذه المذاهب المادية يفتخرون بالثورة الفرنسية التي كان شعارها: (**الحرية، والمساواة، والإخاء**)، ويخفون أو يتجاهلون حقيقة أنها كانت حرب إبادة جماعية داخل فرنسا نفسها، حتى لقد ذكر بعض المؤرخين أن المجازر المروعة التي تعرض لها سكان مقاطعة فانديه خلال العامين (١٧٩٣) و(١٧٩٤)؛ راح ضحيتها نحو (١١٧) ألف قتيل من الأطفال والنساء والعجزة والرجال![1].

واشتعلت الحروب العالمية وغير العالمية، وتسابقت الدول في

---

(١) صدر في الفرنسية كتاب لتوثيق مجازر الثورة الفرنسية عنوانه: «**الكتاب: التاريخ الأسود للثورة الفرنسية**» Le livre noir de la Révolution Française تأليف: رونو اسكاند وآخرين، باريس: ٢٠٠٨، وهو كتاب ضخم في (٨٧٨)، ولم يترجم للعربية، لكنه كتب عنه بعض الملخصات القصيرة.

التسلح وصنع القنابل النووية والذرية، حتى صارت من كثرتها تهدد الوجود البشري على هذه الأرض.

أما المنهج الإسلامي؛ فيربي أبناءه على البذل والعطاء، والصبر والاحتساب، وعلى كفِّ اللسان واليد، وتعظيم حرمة الدماء، لهذا أمرهم باعتزال الفتنة وعدم القتال فيها، وبالصبر على ظلم الحكام، وعدم الانشغال بالمغالبة على كراسي الحكم والحرص على المناصب والرتب المتقدمة في الدنيا، وأمرهم بطلب ما عند الله تعالى من الثواب العظيم، والأجر الجزيل، والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخر.

ومما ورد في هذه المعاني من الأحاديث:

حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّكم سترون بعدِي أثرةً وأمورًا تنكرونها**»، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «**تؤدُّون الحقَّ الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم**»[1].

وحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليك السمع والطاعة، في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثَرةٍ عليك**»[2].

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٦٠٣) و(٧٠٥٢)، ومسلم (١٨٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣٨).

وحديث أبي هريرة ـ أيضًا ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أُعطيتُ بها كذا وكذا! فصدَّقه رجلٌ**» ثم قرأ ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران][1].

فالمنهج النبوي في معاملة الحكام فيه الحفاظ على دين الأمة ورسالتها، وكيانها ووحدتها، وحماية لها من الفتن والتقلبات، وصيانة للدماء والأعراض والأموال، وتخفيف لأسباب التكالب على الدنيا، والصراع على حطامها الزائل، وتكليف بالمقدور عليه من النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير وقوع فيما هو أكبر وأخطر من المفاسد والأضرار.

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٨) و(٢٦٧٢) و(٧٢١٢)، ومسلم (١١٠).

وبالجملة: فقد أرشد ﷺ أمَّته في معاملة حكَّامهم إلى ما فيه صلاح أمر الدين والدنيا، وهو رؤوف رحيم بأمته، ومثَلُه في ذلك ـ كما أخبر هو عن نفسه المقدَّسة ـ: «**مَثَلي ومَثَلُكم: كمثَلِ رجلٍ أوقد نارًا، فجعَلَ الجَنَادِبُ والفَراشُ يقَعْنَ فيها، وهو يذُبُّهُنَّ عنها، وأنا آخِذٌ بحُجَزِكُم عن النَّار، وأنتم تفلَّتُونَ مَن يَدَي**»[1].

أسأل الله تعالى أن يعيذنا من النَّار ومن الأسباب المؤدية إليها، وأن يهدينا إلى الحقِّ ويثبِّتنا عليه، بمنِّه وكرمه.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٨٥).

الخاتمة

خاتمة: في النتائج والتوصيات

يمكن استخلاص النتائج التالية من مادة هذا البحث:

١) أن الغاية من الخلق من ضروريات عقيدة الإسلام، جاء القرآن الكريم ببيانها على وجه اليقين والتفصيل.

٢) الغاية من الخلق في عقيدة الإسلام هي تحقيق العبودية لله تعالى وحده لا شريك له، بالإخلاص لوجهه الكريم، وابتغاء مرضاته، وطاعة أمره، والسعي للنجاة الأخروي، ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنزل الكتب، وأقام سوق الجنة والنار، وجعلها حقًّا خالصًا له مقدَّمًا على جميع الحقوق.

٣) مفهوم العبادة في الإسلام واضح وجلي عند عامة المسلمين، فالعبادة هي إفراد الله تعالى بغاية الذل والخضوع والتعظيم مع غاية المحبة، وأهم أنواعها بعد اعتقاد القلب وعمله وإقرار اللسان بالشهادتين؛ هو الصلاة والزكاة والصيام والحج.

٤) سماحة الإسلام في شعائره وأحكامه التي جاءت لتحقيق غاية الخلق بإقامة العبودية لله، فهي عبادات وشعائر وأحكام في الدرجة العليا من السماحة واليسر ومراعاة قدرة الإنسان واستطاعته،

ووضع أحكام الرخص ورفع الحرج للتخفيف على عباده، وجعل تلك العبادات اليسيرة المحدودة كفيلة بتحقيق غاية الخلق والفوز والنجاة في الآخرة.

٥) سماحة الإسلام في جعل الدنيا وسيلة خادمة، لا غاية مقصودة. وأن هذا المعنى متقرر بنصوص الكتاب والسنة، وأثبته العلماء بالاستقراء التام.

٦) ومن سماحة الإسلام أنه جعل خيرية الإنسان في الإيمان والعمل الصالح، وهذا يدخل في اختيار وقدرة كل أحد، ولم يجعلها في عمارة الأرض والانجاز المادي اللذين يعجز عنهما أكثر الناس.

٧) من المعاني الكلية التي قررها الإسلام وأكد عليها: مجانبة الصراع على الدنيا والمغالبة عليها، والحث على المنافسة في الأعمال الصالحة والمسابقة إلى الدار الآخرة، وهذا من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى حسن التعايش بين البشر، ويحملهم على البذل والعطاء والتضحية والصبر والاحتساب.

٨) للمنهج الإلهي في تقرير غاية الخلق والنظرة إلى الحياة الدنيا محاسن كثيرة، تظهر خيراتها وبركاتها في السلوك الإنساني على مستوى الفرد والمجتمع والدولة، حيث تكثر الخيرات

والمنافع والمصالح، وتقل الشرور والمضار والمفاسد. وفي واقع المجتمعات التي ابتعدت عن منهج الله تعالى شواهد حيَّة على هذه الحقيقة.

وأخيرًا: أوصي العلماء والباحثين والدعاة بتوجيه اهتمامهم البالغ إلى مسألة الغاية من الخلق ونظرة المسلم إلى الحياة الدنيا، لكونها من أهم المسائل التي تشغل بال أكثر الناس، خاصة جيل الشباب، وعدم ترك هذا الموضوع المهم لأهل البدع والانحراف يخوضون فيه بالجهل والباطل. إنَّ طغيان الجانب المادي في الحياة المعاصرة، وانغماس أكثر الناس في تفاصيل الحياة؛ يتطلب من أهل العلم والدعوة بيان المنهج القرآني في النظر لهذه الحياة، ومنزلتها في عقيدة المسلم واهتمامه، بأسلوب صريح قوي، وعدم الخضوع لضغوط الحضارة المادية وزخرفها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مدخل	٥
المبحث الأول: في الغاية من الخلق في عقيدة الإسلام	١٣
تنزيه الله تعالى عن أن يكون خلقه من غير غاية مطلوبة وحكمة مقصودة:	١٣
الغاية من الخلق في كتاب الله تعالى:	١٤
١) أن الغاية من إرسال الرسل هي أمر العباد بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له.	١٦
٢) أن الغاية من إنزال الكتاب هو تحقيق الأمر بعبادة الله وحده.	١٧
٣) وأعظم أمرٍ في كتاب الله هو الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وأعظم نهيٍ فيه هو النهي عمَّا ينافي ذلك من الشرك والكفر والنفاق.	١٨
٤) وأعظم أسباب هلاك الأمم هو الشرك المنافي للغاية التي خلقوا من أجلها.	١٩
٥) والعبادة هي ميزان الآخرة والخلودِ الأبدي في الجنة أو النار.	٢٠
٦) حقُّ الله أولًا وأصالةً، وحقوق الخلق ثانيًا وتبعًا.	٢٢
مفهوم العبادة:	٢٣
المبحث الثاني: دلائل سماحة الإسلام في بيان الغاية من الخلق والنظرة إلىٰ الحياة الدنيا	٣١
أولًا: سماحة الإسلام في شعائره وأحكامه لتحقيق غاية الخلق:	٣١
ثانيًا: سماحة الإسلام في جعل الدنيا وسيلة خادمة لا غاية مقصودة:	٣٨
ثالثًا: جعل خيرية الإنسان في الإيمان والعمل الصالح، لا في عمارة الأرض والانجاز المادي:	٤٨

رابعًا: مجانبة الصراع علىٰ الدنيا والمغالبة عليها: ٥٠
خامسًا: الحثُّ علىٰ المنافسة في الأعمال الصالحة والمسابقة إلىٰ الدار الآخرة: ٥٢
المبحث الثالث: في محاسن المنهج الإسلامي وآثاره الطيبة علىٰ الفرد والمجتمع ٥٧
خاتمة: في النتائج والتوصيات ٦٧